# جبران خليل جبران

١٨٨٢ – ١٩٣١

كتب الكثير عن جبران خليل جبران. وأجمع الكتّاب اللبنانيون والأجانب على اعتباره واحداً من عباقرة القرن العشرين في الأفكار التي عبّرت عنها كتبه وكتاباته وعبّرت عنها سيرته الثقافية والاجتماعية والانسانية والسياسية بمعنى من المعاني. واعتبر الجميع أن كتابه "النبي" هو الذروة بين ما صدر له من كتب وكتابات.

وأشهد أنني تأثرت بكتابات جبران في شبابي الباكر إلى الحد الذي شكل بالنسبة إليَّ واسطة انتقال من زمن في حياتي إلى زمن آخر مختلف. كنت في الرابعة عشرة من عمري عندما بدأت أقرأ في الكتب الثقافية التي كانت تصدر في لبنان وفي مصر على وجه الخصوص. وكانت كتب وكتابات جبران وإلى جانبه ميخائيل نعيمة من أكثر ما شدتني أفكارهما. لكن التمرد والثورة في كتابات جبران هما اللذان دخلا في شكل مباشر وسريع وحازم في وعيي أنا ابن العائلة الدينية العريقة في تاريخ جبل عامل. وصرت في شكل تلقائي جبراني الفكر والقيم الإنسانية. واكتشفت، وأنا أتنقل في الأمكنة الدراسية بين مدرستي "الجعفرية" و"الكاثوليك" في صور ومدرسة "حوض الولاية في بيروت، أن لي شركاء كثر في "جبرانيتي" من أبناء جيلي.

كان بين أولى قراءاتي من كتابات وكتب جبران "خليل الكافر" و"الأجنحة المتكسرة" و"دمعة وابتسامة" و"العواصف" و"يسوع ابن الإنسان" و"يوحنا المجنون" و"الأرواح متمردة" ونصوصاً أخرى لم أعد أذكر عناوينها ومواضيعها، فضلاً عن عدد لا يحصى من قصائده الوجدانية الإنسانية الطابع. وأهمية أفكار جبران التي بهرتني واستهوتني في تلك المرحلة المبكرة من حياتي أنها ساهمت، إلى جانب ما كانت تقدمه لي كتابات كبار أدباء مصر في مجلات "الهلال" و"الرسالة" والثقافة"، في حسم موقفي الحائر بين انتمائي لعائلتي الدينية وبين ما كانت تدخله الأحداث المتسارعة في المتطقة من توترات في وجداني ووجدان جيلي وما كانت تقدمه لي ولجيلي من أفكار جديدة. وجاء ذلك الحسم في اتجاه علمنة أفكاري

من دون التخلي عن القيم الإنسانية الراقية التي كانت قد ترسخت في عقلي ووجداني من تربية والدي الشيخ أحمد. إذ صرت قومياً عربياً متمرداً ساعياً في صورة رومانسية إلى إحداث التغيير في بلداننا العربية من الخليج إلى المحيط لكي تكون في مستوى الدول المتقدمة في العالم. ولم ألبث أن انتقلت من القومية العربية الرومانسية إلى الاشتراكية.

وكانت ترافقني في تحولاتي السريعة كتابات وأفكار جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وجورجي زيدان وطه حسين وعباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم وأمين الرحاني ومعروف الرصافي وحشد من أهل الفكر والأدب في العالم العربي، سرعان ما انضمت إليهم كتابات السوفياتي مكسيم غوركي والإيرلندي جورج برنارد شو وآخرون من أصحاب الفكر الاشتراكي، وكتابات وأفكار عصر الأنوار في فرنسا وعصر الثورة الفرنسية من أمثال فولتير وروسو وفكتور هيجو وسواهم.

أردت من هذه الكلمات التي أفتتح بها الحديث عن جبران خليل جبران أن أشير إلى التحولات المتسارعة التي قادتني إليها أفكار جبران خلال قراءتي المبكرة لبعض كتبه. وهي التحولات التي رسمت لي طريقي إلى المستقبل الذي أنا فيه الآن منذ ستة عقود ونيف. ولست أعني بذلك أن جبران هو الذي قادني إلى الاشتراكية. فهو لم يكن إشتراكياً. لكن أفكاره هي التي فتحت ذهني وعقلي على الجديد الذي كان يجري من حولي وفي العالم، وحررتني من الأفكار المحافظة. وهنا بالذات يكمن سر جبران وسحره.

في مطالع ستينات القرن الماضي أعادتني الصدف إلى جبران من جديد. فقد أتيح لي أن ألتقي في صيف عام ١٩٦٢ في موسكو بصديق جبران ميخائيل نعيمة في المؤتمر العالمي لنزع السلاح الذي عقد بدعوة من مجلس السلم العالمي الذي كنت عضواً في قيادته مقيماً في مركزه الدائم في مدينة فيينا. تحدثت إلى نعيمة مطولاً وتواعدنا على اللقاء في لبنان بعد أن أخبرته أنني كنت من قرائه ومن قراء جبران في مطالع شبابي. فسرّ كثيراً. ولما عدت من مهمتي في مجلس السلم العالمي في أواخر عام

١٩٦٤ قصدته في منزله في بيروت. وبدأت لي معه علاقة حميمة استمرت حتى مطلع الحرب الأهلية. وفي تلك الفترة بالذات قرأت سيرة نعيمة في كتابه "سبعون" وقرأت كتابه عن جبران. وبدأت أتعرف من جديد إلى جبران وإلى نعيمة وإلى كبار أدباء الإغتراب الأميركي أمين الريحاني وإيليا أبو ماضي والشاعر القروي وفوزي المعلوف وآخرين من قاماتهم. لكنني توقفت مليّاً عند جبران. وبدأت أتابع ما كان يكتب عنه في الصحف والمجلات وفي الكتب. وهناك فيض من تلك الكتابات التي يتنافس أصحابها في الحديث عن عبقرية جبران وعن سحره وعن سمات تكاد تصل عند البعض إلى مستوى النبوة.

غير أن قراءتي الحديثة لجبران التي ما تزال في جزء منها تحت سحر القراءة الأولى، أصبحت بمجملها قراءة أكثر موضوعية. وأعترف بأنني أختلف في قراءتي لكتاب "النبي" عن كثيرين ممن جعلوه في مستوى الكتب "المقدسة" ليس لبنانياً وحسب، بل عالمياً أيضاً. وهو، في أي حال، من أهم كتب جبران الذي تضم في طياته أفكاره ووجدانياته وتأملاته، مرفقة بفسحة إنسانية عالية. لكنني ما زلت أرى في الكتب الأولى التي قرأتها له في شباب الباكر الأساسي من أفكاره التي أعاد جبران صياغتها في مراحل لاحقة في شكل أعمق وأكثر صلة بالجديد الذي كان يجري في عروقه تحت تأثير مجريات الأحداث من حوله في أميركا وفي العالم وفي وطنه لبنان وفي المنطقة. وقبل أن أسترسل في قراءتي الحديثة لتراثه الفكري والإنساني، لا سيما في كتاب "النبي"، سأقدم عرضاً مكثفاً لسيرته التي قادته إلى قمة مجده.

ولد جبران في عام ١٨٨٢ في بلدة بشرّي. التحق في البداية بمدرسة مار يشاع التي تعلّم فيها مبادئ اللغتين العربية والسريانية. ثم التحق بمدرسة بشرّي الابتدائية حيث تعلّم القراءة والكتابة. وكان منذ البداية يتمتع بمزاج غريب يشير منذ الطفولة إلى عناصر متناقضة في شخصيته تعبّر في جانب منها عن مواهب فطرية لم تتأخر في الظهور منذ شبابه الباكر في الأدب والفن وفي نمط الحياة.

واجهت جبران في طفولته وفي شبابه الباكر داخل العائلة مشاكل وصعوبات كان من بينها دخول والده السجن، ثم اضطرار العائلة للسفر في عام ١٨٩٥ إلى الولايات المتحدة الأميركية. وكان جبران منذ البدء أكثر ارتباطاً بوالدته وأكثر تعلقاً بها. وقد عبّر عن تعلقه بوالدته بعد وفاتها بكثير من الكتابات التي قدم فيها تقديراً فائقاً للأم ولدورها في المجتمع.

وفي عام ١٨٩٥ قررت والدته السفر إلى أميركا مع شقيقها. وأصطحبت معها جبران وشقيقه بطرس وشقيقتيه مارينا وسلطانة. واختارت العائلة مدينة بوسطن للإقامة فيها. وهناك اختارت أمه العمل خياطة متجولة. واختارت شقيقه للعمل في التجارة ففتح متجراً صغيراً. أما جبران فقد ذهب إلى المدرسة حيث وضع في القسم المخصص للمهاجرين لتعلم اللغة الانجليزية. والتحق في الآن ذاته بمدرسة فنون قريبة من منزل العائلة. في تلك المدرسة نمت مواهبه التي كانت قد بدأت تبرز منذ مطالع شبابه. وشجعته معلمة الرسم على متابعة جهده في مادة الرسم. وكتبت إلى صديقها الفنان فريد هولاند داي تخبره عن جبران وعن موهبته في الرسم. فشجعه هو الآخر وقدم له دعماً مادياً. واستخدم في وقت لاحق بعض رسومات جبران في أغلفة كتبه. في عام ١٨٩٨ عاد جبران مع العائلة إلى لبنان. والتحق على الفور بمدرسة الحكمة. وأنشأ في عام ١٩٠٠ مع صديقه يوسف الحويك في المدرسة مجلة أدبية أسمياها "المنارة" تولّى جبران رئاسة تحريرها وتولى يوسف إدارتها. ونشر جبران في تلك المجلة أولى نصوصه الأدبية مرفقة ببعض رسومه الفنية. كان جبران يقضي العطلة الصيفية في بلدته بشرّي. وظلت علاقته مع والده سيئة. فكان يهرب من جو العائلة إلى الضيعة. وفي عام ١٩٠٢ عاد إلى مدينة بوسطن. وقبيل سفره توفيت شقيقته سلطانة. وبعد سنة من وصوله توفي شقيقه بطرس، ولحقت بهما والدته. ولم يتق معه سوى شقيقته ماريانا التي اضطرت للعمل في معمل خياطة لتأمين نفقات معيشتها ومعيشة جبران. لكن جبران لم يلبث أن تركها لوحدها واختار أن يتابع حياته في شكل مستقل. وهو ما جعل بعض دارسي سيرته يعتبرونه أنانياً ونرجسياً.

تابع جبران في بوسطن وفي أجوائها الثقافية والاجتماعية تطوير شخصيته في مجالات الإبداع الأدبي والفني. وبدأ يقرأ ويرسم ويقيم علاقات مع المثقفين اللبنانيين والأميركيين. وبدأت تبرز في الآن ذاته ثورته على التقاليد البالية في المجتمعات الشرقية مقارنة بما هو عليه المجتمع الأميركي. وبرزت ثورته في كتاباته الأولى التي شكلت بالنسبة لجيلي ولأجيال أخرى مصدراً من المصادر الأساسية للثورة والتمرد.

لم يتأخر جبران في الوصول إلى النجومية في إبداعه الأدبي شعراً ونثراً وتأملات فلسفية وفناً تشكيلياً. وكان من أوائل ما ساهم فيه من موقعه كأحد رموز الأدب المهجري المشاركة في تاسيس "الرابطة القلمية" مع عدد من أصدقائه من الأدباء والشعراء كان في مقدمتهم نسيب عريضة وميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد صاحب مجلة "السائح". وقد تحولت الرابطة بسرعة إلى مركز لالتقاء كبار أدباء وشعراء الاغتراب اللبناني في أميركا.

في كتاب ميخائيل نعيمة عن صديقه جبران تفاصيل كثيرة تتناول جوانب متعددة من سيرته ومن شخصيته ومن علاقاته مع أصدقائه من كبار أدباء وشعراء المغترب الأميركي الذين شكل مع بعضهم ومنهم نعيمة "الرابطة القليمة". ويضيف نعيمة إلى علاقات جبران في عالم الأدب والفن مع بعض الأميركيين علاقاته النسائية التي تعددت أنواعها مع الأميركيات منهن ومع الأديبة مي زيادة التي اقتصرت علاقته معها من خلال الرسائل من دون أن يلتقيا. ورغم أن نعيمة حرص أن يقدم أقصى ما كان يمتلكه من معلومات عن حياة جبران بقدر كبير من الموضوعية، إلا أنه لم يستطع أن يخفي بعض ما اعتبرته خلال قراءتي للكتاب شيئاً من الغيرة من جبران الذي حظي باهتمام كبير من قبل الدارسين في العالم العربي وفي العالم، وانتشرت كتبه انتشاراً واسعاً غير مسبوق. إذ كان نعيمة يعتبر نفسه في إبداعه الأدبي وفي مواقفه الفكرية نداً لجبران. ولم يستطع نعيمة أن يخفي في الآن ذاته موقفه السلبي من

صديقه الآخر أمين الريحاني. وفي تقييمي لكتاب نعيمة أجده أفضل ما قرأت عن جبران، برغم ما أشرت إليه من سلبيات هي في قراءتي لها تعبّر عن موقف أدبي وفكري وشخصي هو، في النهاية، حق للدارسين سواء اتفقنا معهم في تقييماتهم أم اختلفنا. أقول ذلك لأنني قرأت أكثر من كتاب وأكثر من دراسة قديمة وحديثة قيّم كتّابها كل من وجهة نظره شخصية جبران وسيرته وعلاقاته وآثاره الأدبية. ولن أقحم نفسي في هذه الكلمات التي أستحضر فيها شخصية جبران لا في تفاصيل سيرته وعلاقاته المتعددة الاتجاهات والجوانب، ولا في تقييمات الدارسين لسيرته وشخصيته ولآثاره الأدبية. ما يهمني في استحضار شخصية جبران هو ما اختصرته كتبه وكتاباته المتعددة من آراء وأفكار حول الحياة والوجود. هنا بالذات تبرز أهمية كتاب "النبي" ي قراءتي له. ففي هذا الكتاب يكرر في صيغة أكثر ارتقاءاً من كتاباته السابقة آراءه وأفكاره في الحياة والوجود. وأجدني مسوقاً هنا إلى الاستشهاد ببعض هذه الأفكار والآراء التي وردت في كتاب "النبي" تأكيداً لانطباعاتي. وهي إجابات عن أسئلة كانت تتناول معظم جوانب الحياة الإنسانية. يقول عن الحب:

إذا الحب أومأ إليكم فاتبعوه،

ولو كانت مساكله صعبة شديدة الانحدار.

وحينما تضمّكم جناحاه استسلموا له،

ولو كنتم عرضة لأن يجرحكم السيف المخبّأ تحت قوادمه

الحب لا يعطي إلا نفسه، ولا يأخذ إلا من نفسه.

الحب لا يملك، ولا يقبل أن يُملَك.

لأن الحب يكتفي بالحب.

وإذا أحببت عليك ألا تقول: "إن الله في قلبي". قل بالأحرى: "إنني في قلب الله".

ولا تظن أن في وسعك توجيه مسار الحب، لأ، الحب، إذا وجدك مستحقاً وجَّه هو مسارك.

ليس للحب من رغبة إلا أن يفي نفسه.

لكن، إذا أحببت، وكان لا بد لك من رغبات، فلتكن هذه رغباتك:

أن تذوب فتصبح كجدول متدفق ينشد الليل ألحانه.

أن تعرف ألم العطف المتناهي.

أن يجرحك فهمك الخاص للحب،

فتدمى راضياً مسروراً.

أن تستيقظ عند الفجر بقلب مجنح وتقدم الشكر ليوم من الحب جديد،

أن تستريح عند الظهيرة وتتأمّل في نشوة الحب،

أن تعود إلى بيتك في المساء شاكراً،

ثم أن تنام، وفي قبلك صلاة من أجل من تحب، وعلى شفتيك نشيد الثناء.

وعن الأولاد يقول:

أولادكم ليسوا بأولادكم.

إنهم أبناء الحياة وبناتها في توقها إلى ذاتها.

بكم يأتون، لكن ليس منكم،

وهم، وإن كانوا معكم، ليسوا ملكاً لكم.

يمكنكم أن تمنحوهم محبتكم، لكن لا أفكاركم.

لأن لهم هم أفكارهم.

وفي وسعكم أن تسكنوا أجسادهم لا نفوسهم،

لأن نفوسهم تسكن في مسكن الغد الذي لا يمكنكم زيارته حتى في أحلامكم.

ولكم أن تجاهدوا لتكونوا مثلهم، لكن لا تحاولوا أن تجعلوهم مثلكم.

لأن الحياة لا تتراجع، ولا هي مع الأمس تتمهل.

أنتم الأقواس التي تنطلق منها أولادكم كالسهام الحية.

ورامي السهام يبصر الهدف على طريق اللانهاية، وهو يحنيكم بقدرته لكي تنطلق سهامه سريعة وبعيدة.

فليكن انحناؤكم في يد باري القوس مثاراً للفرح،

لأنه كما يحب السهم المنطلق، يحب كذلك القوس الثابتة.

وعن القوانين يقول:

إنكم تفرحون في سن القوانين،

ولكنكم تفرحون أكثر في مخالفتها.

فأنتم كالأولاد الذين يلعبون على شاطئ المحيط، يبنون من الرمل أبراجاً بثبات ثم يهدمونها ضاحكين.

وفيما أنتم تبنون أبراجكم الرملية يأتي المحيط بالمزيد من الرمل إلى الشاطئ، وعندما تهدمونها يضحك المحيط معكم.

حقاً إن المحيط يضحك أبداً مع البريء.

ولكن ما قولكم في الذين حياتهم ليست محيطاً، ولا القوانين التي يسنها الناس أبراجاً من رمل،

بل الحياة عندهم صخرة، والقانون إزميل به يريدون نحت الصخرة لتأتي على مثالهم؟

وعن العقل والهوى يقول:

كثيراً ما تكون نفسكم ساحة حرب، فيها عقلكم ورأيكم مع هواكم وشهوتكم.

ليتني أكون صانع السلام في نفوسكم علّني أستطيع أن أحوّل الخلاف والمنافسة في عناصركم إلى وحدة وتناغم.

ولكن أنّى لي ذلك ما لم تكونوا أنتم أيضاً صانعي سلام لا بل محبّي عناصركم جميعاً؟

إن عقلكم وهواكم هما الدفّة والشراع لنفسكم المبحرة.

وإذا ما تمزق الشراع أو تحطمت الدفّة، تقاذفتكم الأمواج وجرفتكم، وإلا لزمتم مكانكم في عرض البحر.

لأن العقل إذا تحكّم وحده قوة مقيّدة، والهوى إذا انفرد شعلة تتّقد لإفناء ذاتها.

لذلك فلتَسْمُ النفس بعقلكم إلى ذروة هواكم حتى يغنّي،

ولتوجّه هواكم بتعقل كيما يتاح له أن يحيا بانبعاثه اليوميّ وكالفينيكس ينهض من رماده

لكن جبران لم يكن إنساناً وجودياً بمعنى الهيولي للكلمة، ولا كان مفكراً من المفكرين الكبار، ولا كان إنساناً عالمياً بالمعنى الذي يشير إليه ذلك الاهتمام الكبير بكتبه وكتاباته في أميركا وفي العالم. بل هو كان قبل كل ذلك إنساناً ينتمي إلى وطن هو لبنان. وكان لصيقاً بهذا الوطن وبالقضايا المتصلة بحاضره وبستقبله، رغم أن الأصول القديمة لعائلته هي سورية. وكان عربياً بالمعنى ذاته الذي كان فيه لبنانياً. ومشهورة قصيدته التي تحمل عنوان "لكم لبنانكم ولي لبناني" التي أستشهد هنا ببعض فقرات منها بالغة الدلالة وعميقة المعاني وذات نكهة إيمانية بلبنان قادمة من التاريخ تعطيها قدراً غير قليل من راهنيتها.

"لكم لبنانكم ولي لبناني. لكم لبنانكم ومعضلاته، ولي لبناني وجماله. لكم لبنانكم بكل ما فيه من الأغراض والمنازع، ولي لبناني بما فيه من الأحلام والأماني. لكم لبنانكم فاقنعوا به، ولي لبناني وأنا لا أقنع بغير المجرد المطلق. لبنانكم عقدة سياسية تحاول حلّها الأيام، أما لبناني فتلول تتعالى بهيبة وجلال نحو ازرقاق السماء. لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي، أما لبناني فأودية هادئة سحرية تتموج في

جنباتها رنات الأجراس وأغاني السواقي. لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب، أما لبناني فصلاة مجنحة ترفرف صباحاً عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المرج وتتصاعد مساء عندما يعود الفلاحون من الحقول والكروم. لبنانكم حكومة ذات رؤوس لا عداد لها، أما لبناني فجبل رهيب وديع جالس بين البحر والسهول جلوس شاعر بين الأبدية والأبدية. لبنانكم حيلة يستخدمها الثعلب عندما يلتقي الضبع والضبع حينما يجتمع بالذئب، أما لبناني فتذكارات تعيد على مسمعي أهازيج الفتيات في الليالي المقمرة وأغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر. لبنانكم مربعات شطرنج بين رئيس دين وقائد جيش، أما لبناني فمعبد أدخله بالروح عندما أمل النظر إلى وجه هذه المدنية السائرة على الدواليب. لبنانكم رجلان: رجل يؤدي المكوس ورجل يقبضها، أما لبناني فرجل فرد متكئ على ساعده في ظلال الأرز وهو منصرف عن كل شيء سوى الله ونور الشمس. لبنانكم مرافئ وبريد وتجارة، أما لبناني ففكرة بعيدة عاطفة مشتعلة وكلمة علوية تهمسها الأرض في أذن الفضاء. لبنانكم موظفون وعمال ومديرون، أما لبناني فتأهب الشباب وعزم الكهولة وحكمة الشيخوخة. لبنانكم وفود ولجان، أما لبناني فمجالس حول المواقد في ليال تغمرها هيبة العواصف ويجللها طهر الثلوج. لبنانكم طوائف وأحزاب، أما لبناني فصبية يتسلقون الصخور ويركضون مع الجداول ويقذفون الأكر في الساحات. لبنانكم خطب ومحاضرات ومناقشات، أما لبناني فتغريد الشحارير وحفيف أغصان الحور والسنديان ورجع صدى النايات في المغاور والكهوف. لبنانكم كذب يحتجب وراء نقاب من الذكاء المستعار ويختبئ في رداء من التقليد والتصنع، أما لبناني فحقيقة بسيطة عارية إذا نظرت في حوض ماء ما رأيت غير وجهها الهادئ وملامحها المنبسطة. لبنانكم شرائع وبنود على أوراق وعقود وعهود في دفاتر، أما لبناني ففطرة في أسرار الحياة وهي لا تعلم أنها تعلم، وشوق يلامس في اليقظة أذيال الغيب ويظن نفسه في منام. لبنانكم شيخ قابض على لحيته قاطب ما بين عينيه ولا يفكر إلا بذاته، أما لبناني ففتى ينتصب كالبرج ويبتسم كالصباح ويشعر بسواه

شعوره بنفسه. لبنانكم ينفصل آناً عن سوريا ويتصل بها آونة ثم يحتال على طرفيه ليكون بين معقود ومحلول، أما لبناني فلا يتصل ولا ينفصل ولا يتفوق ولا يتصاغر. لكم لبنانكم ولي لبناني".

وإذا كان هذا هو جبران الإنسان بكل المعاني لبنانياً وعربياً وعالمياً فإن جبران في ذروة مجده الأدبي قد مارس دورامهما في تأسيس وقيادة "الرابطة القلمية" في عام ١٩٢٠ التي ضمت في صفوفها نخبة من كبار الأدباء والشعراء في القارة الأميركية أذكر منهم ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي ونسيب عرضة ورشيد أيوب وعبد المسيح حداد وأمين الريحاني ووديع باحوط والياس عطا الله. فقد كان لتلك الرابطة دور كبير في نشر الآثار الأدبية لتلك الجمهرة من كبار أدباء الإغتراب الأميركي، الذين أسسوا بتراثهم مدرسة أدبية تركت آثارها في الأدب العربي على امتداد عقود. واستمرت في نشاطها تحت قيادة جبران حتى وفاته في عام ١٩٣١.

لكن أجمل ما في سيرة جبران علاقته مع الأديبة مي زيادة التي كانت تقيم في مصر. وهي علاقة اقتصرت على الرسائل المتبادلة بينهما والتي أنشأت بينهما صداقة حميمة وصلت إلى مستوى الحب من قبل كليهما. وقد كلفها جبران تمثيله في تكريم شاعر القطرين خليل مطران. وتعتبر تلك المراسلات نوعاً من الأدب الجميل الذي يستحق الدراسة. وقد تولى أكثر من أديب دراسة تلك المراسلات. وحاول البعض أن يستخلصوا من دراساتهم لتلك المراسلات تقييمات حدد كل منهم فيها نوع وطبيعة تلك العلاقة بين جبران ومي. وبالنسبة إليَّ فلا أجدني مسوقاً إلى أي تقييم لتلك العلاقة. ذلك أنني أقرأ في تلك الرسائل أدباً جميلاً جمع بين اثنين من كبار أدبائنا. بل إن من الممكن قراءة الرسائل بحد ذاتها حتى دون أن يقف القارئ باهتمام عند اسميّ صاحبيها. وأستأذن القارئ بالاستشهاد ببعض فقرات من تلك الرسائل التي تشير إلى أمرين اثنين على الأقل في قراءتي لها. الأمر الأول ذلك السر العجيب في تلك العلاقة الأسطورية بين هذين الأديبين التي كانت الرسائل من بعيد صيغتها الإنسانية بأرقى معانيها.

الأمر الثاني هو أن هذه الرسائل، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل، هي جنس رائع من الأدب يستحق الدراسة. والاستشهادات التي أقدمها هنا هي فقرات من عدة رسائل في تواريخ مختلفة.

٢ كانون الثاني ١٩١٤: "قد فكرت اليوم بأمور كثيرة في تلك الشهور الخرساء التي مرت بدون خطاب ولا جواب لكنه لم يخطر على بالي كونك "شريرة". أما الآن وقد صرحت لي بوجود الشر في روحك فلا يجمل بي سوى تصديقك، فأنا أصدق وأثق بكل كلمة تقولينها لي! أنت بالطبع تفتخرين بقولك "أنا شريرة" ويحق لك الافتخار لأن الشر قوة تضارع الخير بعزمها وتأثيرها. ولكن اسمحي لي أن أقول لك مصرحاً بأنك مهما تماديت بالشر فلا تبلغين نصف ما بلغته. فأنا شرير كالأشباح الساكنة في كهوف الجحيم، بل أنا شرير كالروح السوداء التي تحرس أبواب الجحيم! أنت بالطبع ستصدقين كلامي هذا! غير أنني للأن لم أفهم الأسباب الحقيقية التي دعتك إلى استخدام الشر ضدي فهلّا تكرّمت بإفهامي؟... هل قرأت الكتاب الفرنساوي الذي وضعه خير الله أفندي خير الله؟ أنا لم أره بعد وقد أخبرني صديق أن في الكتاب فصلاً عنك وفصلاً آخر عني. فإن كان لديك نسختان تكرّمي بإرسال نسخة منهما إليّ وأجرك على الله. ها قد انتصف الليل فليسعد الله مساءك ويبقيك للمخلص".

٢٤ كانون الثاني ١٩١٩: "سلام على روحك الطيبة الجميلة. وبعد فقد استلمت اليوم أعداد المقتطف التي تفضلت بإرسالها إليّ فقرأت مقالاتك الواحدة إير الأخرى... إن مقالاتك هذه تبين سمو مواهبك وغزارة اطلاعك وملاحة ذوقك في الانتقاء والانتخاب والترتيب. وعلاوة على ذلك فهي تبين بصورة جليّة اختباراتك النفسية الخاصة – وعندي الاختبار أو الإقناع النفسي يفوق كل علم وكل عمل – وهذا ما يجعل مباحثك من أفضل ما جاء من نوعها في اللغة العربية... ".

٧ شباط ١٩١٩: "هل تعلمين يا صديقتي بأنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة. وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي إن هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد

دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها وقومي قوماً لها، هل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي كلما وردت عليّ رسالة منك؟ علمت لما انقطعت عن الكتابة إليّ – وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة".

٢٥ تموز ١٩١٩: "منذ كتبت إليك حتى الآن وأنت في خاطري. ولقد صرفت الساعات الطوال مفكراً بك مخاطباً إياك مستجوباً خفاياك مستقصياً أسرارك. والعجيب أنني شعرت مرات عديدة بوجود ذاتك الأثيرية في هذا المكتب ترقب حركاتي وتكلمني وتحاورني وتبدي رأيها في مآتيّ وأعمالي".

١١ كانون الثاني ١٩٢١: "يا مي... ها قد بلغنا قمة عالية فظهرت أمامنا سهول غابات وأودية. فلنجلس ساعة ولنتحدث قليلاً. نحن لا نستطيع البقاء هنا طويلاً لأني أرى عن بعد قمة أعلى من هذه وعلينا أن نصل إليها قبل الغروب، ولكننا لن نترك هذا المكان إلا وأنت فرحة، ولن نخطو خطوة إلا وأنت مطمئنة".

٣٠ أيار ١٩٢١: "... ليس في حياتنا شيء أدعى إلى التفكر والتأمل من الأحلام. وأنا من الذين يحلمون كثيراً، بيد أنني أنسى أحلامي إلا إذا كانت ذات علاقة بمن أحبهم. لا أذكر أنني حلمت في ماضيّ حلماً أوضح من هذا الحلم، لذلك أراني مشوشاً مضطرباً مشغول البال في هذا الصباح. ماذا تعني رنة التوجع في كلماتك الجميلة؟ وما معنى الجرح في جبهتك؟ وأي بشريّ يستطيع أن يخبرني مفاد انقباضي وكآبتي؟ سوف أصرف نهاري مصلياً في قلبي. سوف أصلي لأجلك في سكينة قلبي. وسوف أصلي لأجلنا. والله يباركك يا ميّ ويحرسك".

٣ كانون الأول ١٩٢٣– عند منتصف الليل: " بماذا أجيب على كلماتك بشأن كتاب "النبي"؟ ماذا أقول لك؟ ليس هذا الكتاب سوى القليل من الكثير الذي رأيته وأراه كل يوم في قلوب الناس الصامتة وفي

أرواحهم المشتاقة إلى البيان. لم يقم في الأر ض من استطاع أن يأتي بشيء من عنده كفرد واحد منفصل عن الناس كافة. وليس بيننا اليوم من يقدر على أكثر من تدوين ما يقوله الناس له على غير معرفة منهم".

يبقى أن أشير إلى أنني تعرّفت إلى خليل جبران نسيب أديبنا جبران في إحدى زياراتي لمدينة بوسطن الأميركية التي لها في ذاكرتي مكان جميل. كان ذلك في عام ٩٨٦ذ. وقد حدثني خليل كثيراً عن حياة جبران. وتوقف بشكل خاص عند الجانب الفني التشكيلي من تراثه. وقدم لي أبوماً يضم عدداً من لوحاته ومنحوتاته. وقادني إلى مدخل الحديقة التي أقيم على مدخلها نصب تذكاري لجبران. وأود أن يعرف القارئ في ختام هذا الاستحضار لجبران خليل جبران عن تراثه أنني لم أذهب إلى ما ذهب إليه الكثرة من الذين كتبوا عن جبران في الدخول في تفاصيل سيرته. فالمهم بالنسبة إليَّ هو إلقاء الضوء على الأساسي في سيرته وهو أفكاره وآراؤه وتأملاته الوجدانية التي تشير إلى الجانب الإنساني العظيم في تراثه وفي شخصيته وفي القيم التي امتلأت بها كتاباته.